قـراءات

الاستشراق الألماني: جدل الماضي والراهن

قراءة في

«كتابات يوسف فان إس القصيرة»

(Kleine Schriften by Josef van Ess)

قراءة

د. محمد الصحبي العلاني

مركز نهوض
للدراسات والبحوث

جميع الحقوق محفوظة 2021

All rights reserved © 2021

الاستشراق الألماني: جدل الماضي والراهن

قراءة في

«كتابات يوسف فان إس القصيرة»

(Kleine Schriften by Josef van Ess)

قراءة

د. محمد الصحبي العلاني

الفهرس

المستشرقون الألمان ومسألة التقبُّل..... 4

ببليوغرافيا جامعة ونصوص مختارة 7

يوسف فان إس: الإطار والمسار..... 11

يوسف فان إس: الخلفية والحصيلة والآفاق 13

المستقبل بما هو ماضٍ 71

أرسى الاستشراق الألماني -على امتداد عقود متتالية- عددًا من التقاليد التي ظلت متوارثةً جيلًا بعد جيل، ومن أبرزها أن يُصدر المستشرق في أخريات مسيرته العلمية مجلدًا أو أكثر يوضع تحت عنوان: «**الكتابات القصيرة**» (*Kleine Schriften*). وعادةً ما يضمُّ هذا الإصدار أهمَّ المقالات التي كتبها صاحبُها طيلة سنوات عديدة، وقد تُدرج فيه بعض الحوارات التي أجراها وطائفة من خطابات التكريم التي كانت أنشطته الأكاديمية محورًا لها. وغالبًا ما يكون ظهور مثل هذا العمل بمثابة الاعتراف بفضل صاحبه وبقيمة إسهامه في تخصُّصه الذي اشتهر به، ولكنه يلفت النظر أيضًا إلى كتاباته المغمورة، ويذكِّر بجهوده في غير دائرة تخصُّصه الضيقة.

ومواصلةً لهذا التقليد العريق، واحتفاءً بالمستشرق الألماني يوسف فان إس (1934-...) Josef van Ess، أصدرت دار بريل الهولندية للنشر ضمن سلسلتها «**التاريخ والحضارة الإسلاميان**» (Islamic History and Civilization) ثلاثة مجلداتٍ مكوَّنة من 2736 صفحةً بعنوان: «**كتابات يوسف فان إس القصيرة**» (*Kleine Schriften by Josef van Ess*). وقد غطَّت المواد المختلفة التي وردت في هذه المجلدات مرحلةً زمنيةً تمتدُّ زهاء ستين عامًا (من عام 1958م إلى عام 2017م)، وهي مرحلة لم ينقطع يوسف فان إس طوالها عن التأليف والنشر.

ونخصِّص هذه المقالة لقراءة هذا العمل الضخم قراءةً نسعى من خلالها إلى التعرف على ما جاء فيه، وإلى الكشف عن بنيته الداخلية وكيفية انتظام عناصره، محاولين من خلال ذلك الوصل بين المضامين المعرفية من ناحية، والسياقات التاريخية التي اكتنفتها والخلفيات النظرية والمنهجية التي أفرزتها، من ناحية أخرى؛ عسانا نُدرك من وراء ذلك كله ملامحَ الخصوصية في آثار يوسف فان إس وفي الاستشراق الألماني عامَّة.

المستشرقون الألمان ومسألة التقبُّل

على الرغم من تضافر الشواهد التي تؤكِّد قيمة ما قدَّمه يوسف فان إس للدراسات الإسلامية، فإن الاهتمام بكتاباته والإقبال عليها والاستفادة منها لم يتخطَّ -في ما نلاحظ- دائرة المتخصِّصين الضيقة، ولم يتجاوزها إلى الدائرة الأوسع: دائرة المثقفين ومتابعي قضايا الفكر الإسلامي.

وقد يبدو من الغريب بل من باب المفارقة أن تكون أعمال الكاتب الواحد مشهورةً ومغمورةً في الوقت نفسِه، وأن يكون صاحبها في منزلة بين المنزلتَيْن: منزلة ذائعي الصيت بين المتخصِّصين، ومنزلة خاملي الذكر لدى الجمهور الواسع. إلَّا أن هذه الوضعية لها أسبابها التي تفسّرها، وهي أسباب يمكن أن نوجزها في النقاط الثلاث التالية:

أن يوسف فان إس قد انكبَّ في بداية مسيرته العلمية على التصوف الإسلامي، حيث كتب فيه عام 1959م أطروحته: «**فكر الحارث المحاسبي: عرض وتفسير من خلال ترجمة أعماله**» (Die Gedankenwelt des Ḥāriṯ al-Muḥāsibī anhand von Übersetzungen aus seinen Schriften dargestellt und erläutert)، ثم صرف معظم جهوده بعد ذلك إلى العناية بعلم الكلام من خلال عمله المرجعي: «**اللاهوت والمجتمع في القرنَيْن الثاني والثالث الهجريَّيْن: تاريخ الفكر الديني في الإسلام المبكِّر**» (Theologie und Gesellschaft im 2. und 3. Jahrhundert Hidschra: Eine Geschichte des religiösen Denkens im frühen Islam)، وهو عمل ضخم أقربُ إلى الموسوعة يقع في ستة أجزاء أصدرها مُنجَّمة بين عامي 1991 و1997م.

ومن المعلوم أن مجال التصوف ومجال علم الكلام يُعَدَّان أعسر مجالات العلوم الإسلامية تناولًا، بسبب وقوع الأول -مثلما يقول القدامى- بين «العبارة والإشارة»، وجمع الثاني -مثلما يذكرون- بين «جليل الكلام ودقيقه»، خلافًا لمجال الفقه مثلًا، الذي يبدو -نسبيًّا- أيسر مأخذًا وأوضح مسلكًا، وذلك بحكم ارتباط فروعه ونوازله وفتاوى أهله بتحوُّلات الواقع وتغيُّر مجريات الاجتماع.

وبالإضافة إلى خصوصية مجال التصوف ومجال علم الكلام وعسر خطابَيْهما، اللذين يبدوان في كثيرٍ من الأحيان منغلقَيْن على الأفهام، لا بدَّ من الإشارة إلى سبب ثانٍ أسهم بدوره في جعل كتابات يوسف فان إس منحصرةً في دائرة المتخصِّصين الضيقة، ونعني بذلك اعتماد الكاتب اللغةَ الألمانيةَ -لغتَه الأُمّ- في معظم ما حرَّر ونشر، رغم إقدامه في أحيانٍ كثيرةٍ على الكتابة بغيرها من اللغات التي يحذقها. ولا يخفى أن قرَّاء الألمانية والمتمكِّنين منها -وإن تكاثروا يومًا بعد آخر- يظلون في حكم القِلَّة مقارنة باللغتَيْن الإنجليزية والفرنسية. والحقيقة أن المسألة اللغوية لا تخصُّ يوسف فان إس وحده، بل تنسحب إلى سائر المستشرقين الألمان الذين ظلَّت أعمالهم -في الأغلب الأعم- حبيسة لغتهم الأصلية لا يكاد ينظر فيها إلَّا العارفون باللسان الألماني المتمكِّنون منه.

وعن اقتران السببَيْن الأول والثاني اللذَيْن علَّلنا بهما انحسار الاهتمام بكتابات يوسف فان إس، ينبثق السبب الأخير، وملخَّصه أن جهود الترجمة والتعريب ما زالت قاصرة قصورًا بالغًا عن مواكبة ما يصدر من مؤلفات المستشرقين الألمان.

ويكفي للبرهنة على ذلك أن نتوقَّف عند وضعية كتاب يوسف فان إس المرجعي: «**اللاهوت والمجتمع في القرنَيْن الثاني والثالث الهجريَّيْن**». فعلى الرغم من إجماع المتخصِّصين على قيمة

هـذا العمـل، فـإن ترجمـة أول جـزء[1] مـن أجزائـه السـتة إلى اللغـة الإنجليزيـة لم تظهـر إلاَّ منـذ أربـع سـنوات (2016م)، ثـم تـوالى ظهـور بقيـة الأجـزاء[2]، وكان آخرهـا الجـزء الخامـس[3] الـذي نُـشر أواخـر شـهر أكتوبـر 2019م؛ أي إن الفاصـل الزمنـي بـين ظهـور الطبعـة الأصليـة وبدايـة نـشر الترجمـة الإنجليزيـة يربـو عـلى ربـع قـرن.

وتبـدو الجهـود العربيـة في هـذا البـاب -مقارنـةً بالجهـود الإنجليزيـة- أفضـل حـالًا إلى حـدٍّ مـا، وإن تباطـأت. فقـد نُـشر الجـزء الأول[4] مـن الكتـاب في لغـة الضـاد عـام 2008م، ثـم نُـشر جـزؤه الثـاني[5] عـام 2016م، وفي انتظـار تعريـب بقيـة الأجـزاء وظهورهـا.

أمـا التراجمـة الفرنسـيون فلـم يحفلـوا بالكتـاب ولم يلتفتـوا إليـه، بـل إنهـم اسـتعاضوا عـن نقلـه إلى لغتهـم بعمـلٍ آخـر للمؤلـف نفسِـه أقـل حجـمًا وأيـسر تنـاولًا، نعنـي بذلـك كتـاب «**بواكـير اللاهـوت الإسـلامي**»[6] (Prémices de la théologie musulmane) الـذي صـدر عـام 2002م. وليـس هـذا الكتـاب الأخـير الواقـع في حـوالي 170 صفحـةً إلَّا تجميعًـا لأربـع محـاضراتٍ ألقاهـا يوسـف فـان إس في معهـد العـالم العـربي بباريـس عـام 1998م، ثـم أُضيـف إليهـا فصـلٌ خامـس مـع مقدمـة تأطيريَّـة عامَّـة.

والـذي يعنينـا مـما تقـدَّم هـو أن صـدور «**كتابـات يوسـف فـان إس القصـيرة**» يتيـح لنـا أن نتعـرف عن قـربٍ إلى مجمـل أعمالـه في مختلف أطوارها وشـتَّى مباحثهـا ومجالاتها، وأن نتتبَّع مسـيرته العلمية وطبيعة اهتماماتـه ومشـاغله عـلى نحـوٍ يتيـح لنـا الإحاطـة بجوانـب أخـرى مـن صورتـه. فـما الـذي تضمَّنتـه هـذه «**الكتابـات**» بمجلداتهـا الثلاثـة؟ ومـا الجديـد الـذي تحملـه مقارنة بما نعرفه مـن مؤلفات يوسـف فان إس؟

---

(1) van Ess, J. (2016). Theology and Society in the Second and Third Centuries of the Hijra. Volume 1. Leiden, The Netherlands: Brill.

(2) van Ess, J. (2017). Theology and Society in the Second and Third Centuries of the Hijra. Volume 2. Leiden, The Netherlands: Brill.

van Ess, J. (2017). Theology and Society in the Second and Third Centuries of the Hijra. Volume 3. Leiden, The Netherlands: Brill.

van Ess, J. (2018). Theology and Society in the Second and Third Centuries of the Hijra. Volume 4. Leiden, The Netherlands: Brill.

(3) van Ess, J. (2019). Theology and Society in the Second and Third Centuries of the Hijra. Volume 5 Indices. Leiden, The Netherlands: Brill.

(4) ج. فان إس، علم الكلام والمجتمع في القرنين الثاني والثالث للهجرة، ج1، ترجمة: سالمة صالح (بيروت: دار الجمل، 2008م).

(5) ج. فـان إس، علـم الـكلام والمجتمـع في القرنـين الثـاني والثالـث للهجـرة، ج2، ترجمـة: محيـي الديـن جـمال بـدر ورضـا حامـد قطـب (بـيروت: دار الجمـل، 2016م).

(6) van Ess, J. (2002). Prémices de la théologie musulmane. Paris, France: Albin Michel.

ببليوغرافيا جامعة ونصوص مختارة

تمثِّل القائمة الببليوغرافية التي احتلَّت صدر المجلد الأول مفتاحَ العمل كله، والمدخلَ الرئيس الذي يتيح للقراء التعرف إلى جهود يوسف فان إس العلمية. وقد امتدَّت هذه القائمة على ست وأربعين صفحةً مرقَّمة ترقيمًا رومانيًّا، من الصفحة XXI (21) إلى الصفحة LXVI (66). ولعل أهمَّ ما يلفت الانتباه فيها هو أن يوسف فان إس لم يورد عناصرها ومكوناتها وَفق تسلسل زمني، من أقدم منشوراته إلى أحدثها؛ بل اعتمد في توزيع مادتها معيارًا شكليًّا، وكانت حجته في ذلك -مثلما صرح في الصفحة LXVII (67) من العمل- هي أن «الببليوغرافيا لا تعكس بالضرورة تحولًا فكريًّا، بل ربما تعكس مسيرةً مهنيةً فقط». وعلى هذا الأساس رتَّب مجمل إنتاجه -سواء كان الكتب والدراسات المُطولة أو المقالات القصيرة- بهذا الترتيب التالي:

- **قسم أول**: خصَّصه للآثار المُطوَّلة والكتب المفردة، وضمَّ 23 عنوانًا.
- **قسم ثان**: خصَّصه للمقالات والمقدمات، واشتمل على 138 عنوانًا.
- **قسم ثالث**: خصَّصه للمراجعات النقدية وتقديم الكتب، وضمَّ 253 عنوانًا.
- **قسم رابع**: خصَّصه لمداخل الموسوعات، واشتمل على 68 عنوانًا.
- **قسم خامس**: خصَّصه للتحريرات المشتركة لسلاسل النشر والمقالات المُجمعة، وضمَّ ستة عناوين.
- **قسم سادس**: خصَّصه للقراءات والحوارات والمنشورات المختلفة، واشتمل أيضًا على ستة عناوين.

وتكْمُن قيمة هذه الببليوغرافيا -حسب تقديرنا- في جانبها التوثيقي الدقيق؛ ذلك أن صاحبها قد اعتمد فيها نهجًا قوامه إيراد عنوان النص، وضبط مكان نشره وتاريخه، وتحديد مظانه، وذكر عدد صفحاته وأرقامها. وحرصًا منه على مزيد التدقيق، أشار إلى الترجمات التي حظيت بها بعض الأعمال، سواء في ذلك الكتب والدراسات المُطولة أو بالنصوص القصيرة.

وقد تبيَّن لنا من خلال النظر في النصوص القصيرة وترجماتها أن الترجمات إلى اللغة الفارسية تتصدر الإحصاء بخمسة أعمال، تليها اللغة العربية بأربعة، ثم اللغتان التركية والإنجليزية بثلاثة لكلٍّ منهما على حدة، ثم اللغتان الفرنسية والبولندية بنصَّيْن اثنَيْن سواء بسواء، أما اللغة الإيطالية ففي آخر الترتيب بترجمة وحيدة.

وعلى الرغم من قيمة هذه الأرقام الواردة في هذا الإحصاء، فإنها لا تهمُّنا في ذاتها، فما يعنينا منها هو مجمل الدلالات التي تنطوي عليها. والواضح للعيان أن الملاحظة التي سلف لنا إبداؤها

في قسمٍ سابقٍ من هذه المقالة حول مدى إقبال المترجمين على أعمال يوسف فان إس المطولة تنطبق أيضًا على كتاباته القصيرة. فمن 471 نصًّا قصيرًا تضمنتها القائمة الببليوغرافية لم يُترجم سوى عشرين نصًّا فقط، بنسبة مئوية لم تتجاوز 4.24%.

لكن بالرغم من محدودية الترجمات مقارنة بمجمل الأعمال، فإن جهود تراجمة العالم الإسلامي تبدو لافتة للانتباه. فمن مجموع نصوص يوسف فان إس القصيرة العشرين التي تمت ترجمتها، استأثرت اللغات الفارسية والعربية والتركية بأكثر من النصف، وتحديدًا بأحد عشر نصًّا، أي بنسبة مئوية تبلغ 55%. وذلك ما يؤكِّد أن أُفق تقبل الأبحاث الاستشراقية في غير لغاتها الأصلية يظل مرتبطًا بجمهور الدارسين العرب والمسلمين أكثر من سواهم، حتى وإن سعت هذه الأبحاث إلى بلوغ حدود العالمية والانتشار من خلال اللغة الإنجليزية أو غيرها من اللغات الإقليمية والمحلية.

ولعل أهم ما يلفت النظر في المجلدات الثلاثة التي شكَّلت مادة «**كتابات يوسف فان إس القصيرة**» هو أن صاحبها قد عمد فيها إلى تقويم مجمل إنتاجه العلمي تقويمًا ذاتيًّا، وقد تجلَّى ذلك في مستويَيْن اثنَيْن:

مستوى الببليوغرافيا ذاتها: حيث أشار يوسف فان إس صراحةً في الصفحة XXV (25)، قبل أن يستعرض مادة القسم الثاني، قسم «المقالات والمقدمات»، أشار إلى أن «المحاضرات أو المقالات التي لم تكن مُعدةً للنشر ليست مُدرجة ضمن القائمة». ويمكن أن نفهم من هذه الإشارة أن بعضًا من إسهامات يوسف فان إس كانت محكومةً بالسياقات الظرفية التي أفرزتها والمقامات الآنية التي أنتجتها؛ ولعل ذلك متعلِّق -في ما نقدر- بما كان يقدِّمه لطلبته في نطاق دروسه الجامعية، التي لم يَرَ كبير فائدة في نشر نصوصها وإذاعتها بين القراء.

مستوى المتن: وقد بدا فيه الكاتبُ أكثر صرامةً وتشدُّدًا. فمن بين 471 نصًّا قصيرًا تمت الإشارة إليها في الببليوغرافيا، اكتفى يوسف فان إس بنشر 156 نصًّا؛ أي إن المجلدات الثلاثة بصفحاتها التي تجاوزت ألفين وسبعمائة صفحة لم تضم إلَّا ثلث ما كتبه هذا المستشرق طيلة مسيرته العلمية.

أما المنهج الذي اعتمده يوسف فان إس في ترتيب هذه المادة المختارة، فلم يبعد عمَّا سلف له اعتماده عند عرضه لمكونات الببليوغرافيا وضبطه لعناصرها. فقد تجنَّب الترتيب الزمني ولم يورد مقالاته متسلسلةً، قديمها فالأحدث منها، ولكنه تجاوز هذه المرة الحدود الشكليَّة المحضة، فجمع نصوصه القصيرة المنتقاة وَفق منطق غرضي/موضوعي (thematic/thématique)، ولذلك جاء توزيعها في المجلدات الثلاثة على النحو التالي:

اشتمل **المجلد الأول** (ص596-1) على أربعة أقسام:

- القسم الأول بعنوان: «توبنغن وبقية العالم»، ويضمُّ 14 مقالة.
- القسم الثاني بعنوان: «في البحث عن موضوع»، ويضمُّ 8 مقالات.
- القسم الثالث بعنوان: «لقاء الشرق»، ويضمُّ 13 مقالة.
- القسم الرابع بعنوان: «حوار»، ويضمُّ 5 مقالات.

اشتمل **المجلد الثاني** (ص1608-597) على ثلاثة أقسام:

- القسم الخامس بعنوان: «الإسلام وخياراته الأولى»، ويضمُّ 25 مقالة.
- القسم السادس بعنوان: «المعتزلة»، ويضمُّ 29 مقالة.
- القسم السابع بعنوان: «علم الكلام في عهد ابن سينا»، ويضمُّ 8 مقالات.

أما **المجلد الثالث** (ص2601-1609) فاشتمل على خمسة أقسام:

- القسم الثامن بعنوان: «التصوف الإسلامي»، ويضمُّ 10 مقالات
- القسم التاسع بعنوان: «شذرات: الدين واللاهوت في بيئتهما»، ويضمُّ 20 مقالة.
- القسم العاشر بعنوان: «مراوحات»، ويضمُّ 12 مقالة.
- القسم الحادي عشر بعنوان «خلاصات»، ويضمُّ 8 مقالات.
- القسم الأخير بعنوان: «ملاحق للمستقبل»، ويشتمل على 4 مقالات.

ومَن يُمعن النظر في الكيفية التي رتَّب بها يوسف فان إس هذه الأقسام الاثني عشر، ينتبه إلى أن المنطق الغرضي/الموضوعي الذي سار على هديه لم يكن منطقًا مفككًا يستقلُّ فيه كل غرضٍ بذاته وينفصل تمام الانفصال عمَّا سواه. فلم تتوال الأقسام هكذا اتفاقًا، ولم ترد واحدًا إثر آخر بشكل عفوي اعتباطي، بل إن ثمة نظامًا داخليًّا يحكمها. حيث يشكِّل القسم السادس («المعتزلة»)، والقسم السابع («علم الكلام في عهد ابن سينا»)، والقسم الثامن («التصوف الإسلامي») -في تقديرنا- **النواةَ المركزية للعمل**. ومن الواضح أن يوسف فان إس قد اختار بعناية المقالات التي أدرجها ضمنها حتى تكون مادتها مرآةً تعكس الجهود المعرفية التي أنفقها طيلة مسيرته العلمية في دراسة مجالَي تخصُّصه الضيقَيْن: مجال علم الكلام، ومجال التصوف.

والدليل على ما نذهب إليه هو أن هذه الأقسام/النواة قد ضمَّت 47 مقالةً من أصل 156 مقالةً بنسبة تبلغ 30.12%، وأن العدد الأهم مما جاء فيها نُشِرَ سابقًا ضمن موسوعات عالمية مشهود لها، مثل «دائرة المعارف الإسلامية» و«دائرة المعارف الإيرانية». ومن النماذج على ذلك: مقال «واصل بن عطاء»[7]، ومقال «كُمون»[8]، ومقال «أبو القاسم الكعبي»[9].

وإلى جانب هذه الأقسام الثلاثة التي شكَّلت نواة «**الكتابات القصيرة**» ومركز الثقل فيها، يستوقفنا القسم الخامس («الإسلام وخياراته الأولى»)، والقسم التاسع («شذرات: الدين واللاهوت في بيئتهما»). وقد نهض هذان القسمان بوظيفة الكشف عن **الرؤية المنهجية** التي اعتمدها يوسف فان إس في معالجته لقضايا الفكر الإسلامي. وقوام هذه الرؤية التي ندعو باحثينا إلى مزيد دراستها وتمحيصها خطوتان متقابلتان ولكنهما متكاملتان:

خطوة أولى تنزل من المنهج منزلة **الأطروحة**، ويرى الكاتب فيها أن الإسلام (والمقصود بالإسلام هنا الفكر الإسلامي والعلوم التي تشكِّل صلب هذا الفكر خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى) قد أفرز في عصوره المبكِّرة توجهاتٍ شتَّى ومواقفَ متعدِّدة وآراء متنوِّعة منفتحةً على احتمالاتٍ كثيرةٍ في تأويل النصوص والتعامل معها وفي صياغة الأفكار وتطارحها. ومن المقالات التي تستوقفنا في هذا الباب: مقال «رسالة عمر الثاني [بن عبد العزيز] ضد القدرية»[10]، ومقال «بدايات اللاهوت الإسلامي»[11]، ومقال «البدايات المبكِّرة لتطوُّر [علم] الكلام»[12].

وأما **الخطوة التالية**، وهي خطوة تنزل بالنسبة إلى سابقتها منزلة **نقيض الأطروحة**، فأساسُها القول بأن البيئة بمختلف عواملها -ولا سيما العوامل السياسية والاجتماعية والذهنية- قد أثرت في التنوُّع الذي وسم زمن البدايات، حتى انتهى الأمر بالفكر الإسلامي إلى ضربٍ من الانحسار والجمود والنمطيَّة. ومن المقالات التي تندرج ضمن هذا المعنى: مقال «الهوية الإباضية والسياسات الإمبراطورية في الإسلام المبكِّر»[13]، ومقال «المعراج ورؤية الله من خلال التأويلات الكلامية الأولى»[14].

---

(7) نُشر في الأصل في: «دائرة المعارف الإسلامية»، E.I.2، XI/164-165، وأُعيد نشره ضمن «الكتابات القصيرة»، مج2/ص1037-1035.

(8) نُشر في الأصل في: «دائرة المعارف الإسلامية»، E.I.2،V/384-385، وأُعيد نشره ضمن «الكتابات القصيرة»، مج2/ص1173-1170.

(9) نُشر في الأصل في: «دائرة المعارف الإيرانية»، E. Ir.، I/359-362، وأُعيد نشره ضمن «الكتابات القصيرة»، مج2/ص1387-1381.

(10) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص665-659.

(11) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص881-855.

(12) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص902-882.

(13) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص2070-2056.

(14) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص1804-1775.

يوسف فان إس: الإطار والمسار

وخلافًا لما عليه الأمر في الأقسام الوسطى من «**كتابات يوسف فان إس القصيرة**» (ونعني بذلك الأقسام السادس والسابع والثامن التي شكَّلت النواة ومركز الثقل، والقسمَيْن الخامس والتاسع اللذين كشفا عن الرؤية المنهجية)، فقد نهضت أقسام العمل الأربعة («توبنغن وبقية العالم»، و«في البحث عن موضوع»، و«لقاء الشرق»، و«حوار») بوظيفة مزدوجة يمكن أن نسمها بـ «وظيفة **التأطير والتنزيل**»: **تأطير** جهود يوسف فان إس، و**تنزيلها** ضمن سياقها من الاستشراق الألماني.

أما **التأطير** فيكشف لنا عنه عدد من المقالات التي جَمَعت بين استذكار بعضٍ من المستشرقين وتأبين بعضهم الآخر، كالمقالة التي خُصِّصت للمستشرق الألماني كريستيان فريدريخ سيبولد (1859-1921) Christian Friedrich Seybold[15]، وتلك التي كُتبت في ذكرى الباحث الألماني المتخصِّص في الدراسات الفارسية كريستيان رامبيس (1901-1972) Christian Rempis[16]، أو نظيرتها التي وُضِعت تأبينًا للمستشرق الألماني المتخصِّص في اللغات السامية رودي بارِت (1901-1983) Rudi Paret[17]، أو تلك التي اتخذت موضوعًا لها المستشرق الألماني المتخصِّص في دراسات الشرق الحديث فريتز ستيبات (1923-2006) Fritz Steppat[18]. فمثل هذه المقالات التي قد تبدو لنا في الظاهر مجرَّد «عمل بروتوكولي» غايته تأبين الموتى والإشادة بجهودهم، هي في جوهرها «جرد حساب معرفي» يتيح للأحياء أن يَعُوا مقدار التراكم الذي حقَّقه السابقون حتى يتسنَّى لهم أن يبلغوا بالمعرفة درجةً أرقى وأفقًا أكثر اتساعًا وعمقًا.

ولم يقتصر ما وسمناه بالتأطير على هذا الوجه وحده، فإلى جانب نصوص التأبين والاستذكار وضع يوسف فان إس عددًا من المقالات التي يمكن أن نعتبرها مراجعَ أساسيةً لكل من يروم التأريخ للاستشراق الألماني ودراسة خصائصه ومعرفة توجهات أبرز أعلامه، ومن أهم هذه المقالات: مقال «**من فيلهوزن إلى بيكر: انبثاق التاريخ الثقافي في الدراسات الإسلامية**»[19]، ومقال «**تعليقات حول نشأة الاستشراق**»[20].

---

(15) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص33-49.

(16) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص50-52.

(17) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص53-59.

(18) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص75-89.

(19) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص5-32.

(20) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص63-65.

وإلى جانب هذين المقالين اللذين حدَّد فيهما يوسف فان إس أبرز ملامح الاستشراق الألماني بشكل مباشر، تستوقفنا مقالات أخرى اتخذت جانب المقارنة، وهي مقالات سعى الكاتب من خلالها إلى بيان وجوه الائتلاف ومظاهر الاختلاف بين المدرسة الألمانية والمدرستَيْن الفرنسية والإنجليزية. ويمكننا أن نشير هنا -على وجه الخصوص- إلى المقالة التي كُتبت باللغة الفرنسية بعنوان: «**ماسينيون منظورًا إليه بعَيْنَيْ ألماني**»[21]، وإلى مقالة ثانية حُررت باللغة الإنجليزية بعنوان: «**تحية إلى منتغمري وات**»[22]، بالإضافة إلى مقالة أخرى عنوانُها: «**جورج شحاتة قنواتي (1894-1905)**»[23]، وهي في الأصل نصُّ تأبين لهذا المستشرق الراهب المصري ذي اللسان الفرنسي، تضمَّنت ملاحظاتٍ حول أعماله المتصلة بعلم الكلام والتصوف والفلسفة.

وإذا كان ما وسمناه بـ «وظيفة التأطير» في مقالات القسم الأول متصلًا بأعلام الاستشراق الألماني وبغيرهم من أعلام الاستشراقَيْن الإنجليزي والفرنسي أو بمن هم في حكمهم، فإن ما سميناه «**وظيفة التنزيل**» يتعلَّق بيوسف فان إس نفسه. وذلك ما تكشف لنا عنه بصورة خاصَّة المقالات الواردة في القسم الثاني («في البحث عن موضوع»). وفي هذا القسم حرص المؤلف على تقديم نماذج من كتاباته التي وضعها في مرحلة مبكِّرة من مسيرته العلمية. ومن الأمثلة على ذلك: مقال «**الزنادقة والشكاكون في الإسلام**»[24]، ومقال «**دراسات استشراقية جديدة حول تقاليد الأفلاطونية المُحدثة في بلاد الإسلام**»[25]، ومقال «**الشكُّ في التفكير الإسلامي**»[26]. فهذه المقالات وما جرى مجراها من قديم المنشورات هي تعبيرٌ عن مرحلة كان فيها يوسف فان إس يسعى إلى اكتشاف الحضارة العربية الإسلامية والتعرف إليها من أجل الظفَر بموضوعٍ جديرٍ بالدراسة يتخذه مدارًا لأطروحته. وفي سياقٍ كهذا الذي وجد فيه يوسف فان إس نفسه، ليس من الغريب إطلاقًا أن يبدو الطالب/الباحث موزعًا بين تخصُّصات شتَّى، مترددًا بين القديم والحديث، وبين السائد المُكرَّر والطريف المُبتكَر.

والذي نذهب إليه من خلال تأويلنا للمنطق الداخلي الذي انبنت عليه أقسام «**كتابات يوسف فان إس القصيرة**»، هو أن هذا الأخير لم يتجاوز طور التعرف إلى الحضارة العربية الإسلامية، ولم يتخطَّ مرحلة الحيرة والتردُّد في اختيار موضوع أطروحته إلَّا لحظة اكتشافه لما نُسميه «الحالة

(21) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص123-113.

(22) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص136-132.

(23) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص129-124.

(24) نُشرت أول مرة عام 1964م، ثم أُعيد نشرها ضمن: «الكتابات القصيرة»، مج1/ص173-160.

(25) نُشرت أول مرة عام 1965م، ثم أُعيد نشرها ضمن: «الكتابات القصيرة»، مج1/ص208-190.

(26) نُشرت أول مرة عام 1968م، ثم أُعيد نشرها ضمن: «الكتابات القصيرة»، مج1/ص189-175.

اللبنانية» أو «الدرس اللبناني». وقد كانت هذه الحالة -بمعايير الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي- حالةً استثنائيةً لا يمكن لمن ينظر إليها من الداخل إلَّا أن يرى فيها غير ما يراه من ينظر إليها من الخارج، ولا يمكن لمن يُعايش أحوال الطوائف بها عن قربٍ أن يمرَّ دون أن يُحصل من معايشته تلك رؤيةً شاملةً للفكر والحضارة الإسلاميَّيْن في تنوُّعهما وثرائهما من ناحية، وفي انغلاقهما وانكفائهما من ناحية أخرى.

وقد بدا لنا واضحًا أن «الحالة اللبنانية» أو بالأحرى «الدرس اللبناني» كان مفيدًا بالنسبة إلى يوسف فان إس الذي زار لبنان أكثر من مرة وأقام فيه وتفاعل مع واقعه واهتمَّ بالطائفة الدرزية على وجه الخصوص، وكانت ثمرة ذلك كله مجموعة من المقالات التي شكَّل معظمُها مادةَ القسم الثالث («لقاء مع الشرق»)، ولا سيما المقالات الست التي بعنوان: «**أشتات لبنانية 6-1**»[27]، بالإضافة إلى مقالة أخرى بعنوان: «**اللائكية والحوار بين الأديان: بعض ذكريات شخصية**»[28].

وعن هذا القسم الثالث («لقاء مع الشرق»)، وهو قسم كان الأثر اللبناني فيه جليًّا واضحًا، انبثق القسم الرابع («حوار»)، وهو قسم ضمَّنه يوسف فان إس خمس مقالاتٍ تناول فيها مظاهر من التفاعل الحاصل بين الفِرق والطوائف في التاريخ الإسلامي، مثل مقال «**السُّنة والشيعة: الدولة والقانون والثقافة**»[29]، إلى جانب تعرضه لمظاهر من الجدل بين الإسلام والمسيحية، مثل مقال «**الإسلام والأديان الأخرى: يسوع في القرآن**»[30].

يوسف فان إس: الخلفية والحصيلة والآفاق

ورغم أهمية هذه الأقسام الأربعة الأولى («توبنغن وبقية العالم»، و«في البحث عن موضوع»، و«لقاء الشرق»، و«حوار») اعتبارًا **للوظيفة المزدوجة** التي نهضت بها **تأطيرًا وتنزيلًا**، ورغم **مركزية** الأقسام الثلاثة الوسطى السادس والسابع والثامن («المعتزلة»، و«علم الكلام في عهد ابن سينا»، و«التصوف الإسلامي») من جهة كونها **موطن الثقَل** في العمل كله، ورغم قيمة القسمَيْن الخامس والتاسع («الإسلام وخياراته الأولى»، و«شذرات: الدين واللاهوت في بيئتهما») من ناحية كشفهما عن **رؤية يوسف فان إس المنهجية**؛ بالرغم مما تقدَّم كله، فإن الأقسام الثلاثة الأخيرة -القسم العاشر

(27) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص289-298، 314-316، 317-327، 328-339، 340-355، 363-464.

(28) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص299-313.

(29) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص556-569.

(30) «الكتابات القصيرة»، مج1/ص584-596.

(«مراوحات»)، والقسم الحادي عشر («خلاصات»)، والقسم الثاني عشر («ملاحق للمستقبل»)- تبدو في تقديرنا بمثابة العنصر الذي لا غنى عنه، والمكون الذي لا تكتمل الصورة إلَّا به.

وإذا جاز لنا أن نستعير من مجال الفنون التشكيلية بعض اصطلاحات أهله، فإن أنفس ما نستعيره منهم -في المقام الذي نحن فيه- مفهوم **البُعْد الثالث**، هذا البُعْد الذي يتيح للناظر أن يتبيَّن حجم ما يقع عليه نظره، وعمق ما يراه أمامه، وأن يتخطَّى السطح ويُلمَّ بالمنظور، ويُدرك الزاوية التي تحكم رؤيته للموضوع. وإننا لَنجد في الأقسام الثلاثة الأخيرة من «**الكتابات القصيرة**» ما يبلغ بنا هذا الحدَّ، ويرقى بنا إلى هذه الدرجة.

ففي القسم العاشر («مراوحات») تستوقفنا مقالات لا صلة مباشرة لها بمجال علم الكلام ولا بمجال التصوف، اللذَيْن يمثلان حقل تخصُّص يوسف فان إس، من ذلك: مقال «**التعليم والجامعات في الإسلام الوسيط**»[31]، ومقال «**الإسلام والعصر المحوري**»[32]، ومقال «**الأنشطة الموسوعية في العالم الإسلامي: بعض أسئلة ولا جواب**»[33].

ورغم طرافة ما ورد في هذا القسم من مقالات (ولا سيما المقالة الأخيرة التي لنا إليها عودة في خاتمة هذا العمل)، فإن القسم الذي يليه -أي الحادي عشر («خلاصات»)- يظلُّ في تقديرنا أكثر طرافةً، وأدعى إلى التركيز والاهتمام، وأجدر بالتعريب. وقد تضمَّن مقالتَيْن: الأولى «**وأنا أنظر إلى دفتري المدرسي**»[34]، والثانية «**الأطروحة: ذكريات من العصر الحجري للدراسات الاستشراقية**»[35]. فقد صاغ يوسف فان إس هاتَيْن المقالتَيْن صياغةً أقرب ما تكون إلى السيرة الذاتية التي تتداخل فيها الأبعاد العلمية والعملية، وتمتزج تفاصيل الحياة الشخصية بمجريات الوقائع العامَّة والسياقات التاريخية.

وفي هاتين المقالتَيْن المطولتَيْن -وأولاهما لم تُنشر من قبل- نقف على معلوماتٍ وافية تتعلَّق بشخصية يوسف فان إس، وبأصوله الأسرية الهولندية، وبالظروف التي اكتنفت حصوله على الجنسية الألمانية حين بلوغه العشرينات من عمره، تمامًا مثلما نجد إشاراتٍ مفصلةً تتصل بوضعه المادي في مطلع حياته، وبالحالة الاجتماعية التي كان عليها.

---

(31) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص2109-2119.

(32) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص2075-2093.

(33) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص2094-2108.

(34) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص2295-2355.

(35) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص2356-2401.

ولكـن هـذه المعلومـات -بالرغـم مـن إيغالهـا في عـرض التفاصيـل الشـخصية أحيانًـا، وإطنابهـا في وصـف المعانـاة الفرديـة أحيانًـا أخـرى- ليسـت إلَّا جـزءًا مـن مـشروعٍ أكـبر بـدا يوسـف فـان إس حريصًـا عـلى رفـع صرحـه وتشـييد بنيانـه لبنـةً إثـر أخـرى، ونعنـي بذلـك مـشروع «**سـيرته الفكريـة**».

وفي هـذه السـيرة اسـتعرض الكاتـب مختلـف مراحـل تكوينـه، وأسـماء الأسـاتذة الذيـن تتلمـذ لهـم، والمقـررات التـي كانـوا يقدمونهـا في الجامعـة، وأشـار إلى حـدود اسـتفادته منهـم، وتوقـف بشـكلٍ خـاصٍّ عنـد الرهانـات العلميـة والصعوبـات المنهجيـة والإجرائيـة التـي حفـت بإعـداده لأطروحتـه. وقـد أفـضى بـه الأمـر إلى رسـمِ أهـم الخصائـص التـي ميـزت الاسـتشراق الألمـاني في لحظـة مفصليـة مـن لحظـات تاريخـه، ونعنـي بذلـك اللحظـة التـي أعقبـت الحـرب العالميـة الثانيـة.

ولعـل أهـمَّ مـا نحتفـظ بـه مـن الخصائـص التـي ميـزت هـذه الفـترة، هـو أن الاسـتشراق الألمـاني كان اسـتشراقًا ذا تقاليـد علميـة عريقـة ومضامـين معرفيـة مشـهود لهـا، عمادُهـا الأخـذ بالمناهـج الفيلولوجيـة والانكبـاب عـلى النصـوص القديمـة والتركيـز عـلى المـاضي. ولكـن السـياقات السياسـية المطبوعـة بأجـواء الحـرب البـاردة وبتقسـيم ألمانيـا شـطرَيْن (شـطرٍ شرقـي ذي ميـول اشـتراكية يقع تحـت النفوذ السـوفيتي، وشـطرٍ غـربي ذي نـوازع تحرُّريـة وولاء للحلفـاء المنتصريـن)، قـد حكمـت عـلى المسـتشرقين الألمـان بـأن يكابـدوا معضلتَـيْن داخليًّـا وخارجيًّـا في الوقـت نفسِـه:

فقـد عانَـوْا **في الداخـل** مـن معضلـة التقسـيم (تقسـيم ألمانيـا)، الـذي أدى إلى انقطـاع الصلـة بين أكـبر مركزَيْن اسـتشراقيَّيْن مـن مراكزهـا: مركـز مدينـة لايبزيـغ (Leipzig) الواقـع في شـطرها الشرقـي، ومركـز مدينـة توبنغـن (Tübingen) الواقـع في الشـطر الغـربي؛ إلى درجـة أن اسـتعارة «القامـوس العربي/الألمـاني»، قامـوس المسـتشرق الألمـاني هانـز فيـر Hans Wehr (1909-1981م)، الـذي صدر عام 1952م، وكان متوفـرًا في مدينة لايبزيغ الشرقية، بـل مجـرَّد محاولـة الاطـلاع عليـه كانـت «مغامـرة باهظـة الثمـن محفوفـة بالمخاطـر»، كـما يقـول فـان إس[36].

ولم تقتـصر معانـاة المسـتشرقين الألمـان خـلال هـذه الفـترة -فـترة مـا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة- عـلى رقعـة الداخـل الألمـاني المقسـمة وحدهـا، بـل امتـدَّت لتشـمل **الخـارج** أيضًـا. فقـد حكمـت موازيـن القـوى الدوليـة عـلى ألمانيـا بـأن يظـلَّ مسـتشرقوها -والعبـارة ليوسـف فـان إس- «مجـرَّد مشـاهدين لمـا يجـري حولهـم»[37]، إلى درجـة أن الاسـتشراق الألمـاني وجـد نفسـه عـلى هامـش الحركـة الاسـتشراقية العالميـة. وقـد اكتفـى أغلـب أعلامـه بمتابعـة الخطـوات المتسـارعة التـي كان يخطوهـا الاسـتشراقان الإنجليـزي والفرنـسي، في حـين انخـرط بعضهـم -وهـم قلَّـة قليلـة- في خدمـة الاسـتشراق الجديـد الناشـئ، ونعنـي بذلـك الاسـتشراق الأمريـكي.

(36) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص2308.

(37) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص2300.

ومهما يكن من أمر، فإن حالة الانكفاء على الذات والانقطاع عن الراهن، التي ميزت الاستشراق الألماني بُعيد الحرب العالمية الثانية وخلال فترة الحرب الباردة، لم تزده إلَّا تمسكًا بالأصول التي نهض عليها، وانشدادًا إلى التقاليد التي اشتهر بها. ولذلك انصرف أكثر فأكثر إلى الدراسات الفيلولوجية، وإلى الاعتناء بالماضي، وإلى تعميق النظر فيه وتهيئة وسائل الإحاطة به، خلافًا لما عليه الأمر بالنسبة إلى الاستشراقَيْن الإنجليزي والفرنسي اللذين كانا مأخوذَيْن بالحاضر وبالماضي القريب، والاستشراق الأمريكي الذي بدا -وهو الطارئ على حركة الاستشراق العالمية- أشدَّ هوسًا بالآني الراهن وبتقلباته وصراعات القوى الدولية فيه.

وما لبث هذا الاختلاف الذي وسم المدارس الاستشراقية الأربع (مدرسة الاستشراق الألماني التي غلب عليها الانغماس في الماضي من ناحية، ومدراس الاستشراق الإنجليزي والفرنسي والأمريكي التي غلب عليها الانصراف إلى الماضي القريب وإلى الحاضر والراهن من ناحية أخرى) أن انقشع بصورة تدريجية. والسبب في ذلك أن الجميع وجدوا أنفسهم مُجبرين على التقارب الذي لا مناص منه وعلى الاستفادة المتبادلة التي لا محيد عنها، فراهِنُ الشرق وحاضره وماضيه القريب لا يمكن أن يُفهم إلَّا بالعودة إلى الدراسات التي تعلَّقت بماضيه البعيد. وذلك ما استدعى -وجوبًا- الاعتراف بالاستشراق الألماني وإخراجه من حالة انكفائه على ذاته وانقطاعه عن الآخرين.

ولكن النهوض بهذه المهمَّة الجديدة الطارئة لم يكن أمرًا سهلًا. فقد كان على يوسف فان إس -شأنه في ذلك شأن العديد من المستشرقين من أبناء جيله- أن يكابد ضربًا من ضروب المعاناة لا عهد له به، ونعني بذلك معاناة الكتابة بلغة غير لغته الأُم أو ترجمة ما كتبه في الأصل بهذه اللغة إلى لغاتٍ أخرى غيرها. صحيح أن يوسف فان إس كان يتقن من اللغات الغربية الحديثة الإنجليزيةَ والفرنسيةَ والهولنديةَ والإسبانيةَ إلى جانب إلمامه بالعديد من اللغات الشرقية الحيَّة والميتة، كالحبشية والسريانية والآرامية والعبرية والأكادية والعربية، التي مثَّلت عُدَّتَه بصفته باحثًا ذا خلفية وتكوين فيلولوجيَّيْن، إلَّا أنه -بالرغم من الزاد الذي حواه- لم يستطع أن يتحرَّر من أثر اللغة الألمانية فيه. وقد عيب عليه أن كتاباته ظلَّت -حينًا من الدهر غير يسير- محافظةً على «رواسب لهجية» ألمانية تجعل من الصعب فهمها بلغاتٍ أخرى[38]. وذلك ما اقتضى منه أن ينصرف إلى الكتابة وإعادة الكتابة حتى يجود أسلوبه ويُخلصه من «المحليَّة» التي وسمته.

على هذا النحو إذن، خصَّص يوسف فان إس أهمَّ ما جاء في القسم الحادي عشر من «**الكتابات القصيرة**» لرسم ملامح سيرته الفكرية؛ فانصرف إلى الماضي، ماضيه هو، وإلى ما سمَّاه «العصر الحجري للدراسات الاستشراقية»، في إشارة ضمنيَّة منه إلى التطورات السريعة المتلاحقة التي سيشهدها الاستشراق الألماني.

(38) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص2360.

وقد كان التركيز على الماضي في القسم الحادي عشر («خلاصات») سببًا من الأسباب التي دعت يوسف فان إس إلى الانفتاح على الزمن الآتي في القسم الثاني عشر («ملاحق للمستقبل»)، وهو للتذكير القسم الأخير من أقسام «**الكتابات القصيرة**».

المستقبل بما هو ماضٍ

ولكن نظرنا في المقالات الأربع التي شكَّلت مادة هذا القسم أوقفنا على أمرٍ بدا من صميم المفارقة. فخلافًا لما يدلُّ عليه ظاهر العنوان، لفظًا ومعنًى («ملاحق للمستقبل»)، وعلى عكس أفق الانتظار الذي انفتح أمامنا والذي ذهب بنا الظن فيه إلى الاعتقاد بأن الكاتب سيخصِّص هذا القسم لصياغة مشروع لما يمكن أن تكون عليه الدراسات الاستشراقية بعد عقود؛ خلافًا لذلك كله عاد بنا يوسف فان إس إلى الماضي في حركة ارتدادية اكتفى فيها بإعادة نشر مقال قديم سبق له إصداره عام 2016م بعنوان: «**إعادة تشكيل الفكر الإسلامي المبكِّر: الإباضية في سياقها**»[39]، بالإضافة إلى ثلاث مقالاتٍ أخرى لم يسبق له نشرها، وهي مقالات اتخذت محورًا لها شخصية ضرار بن عمرو (ت: حوالي 190هـ) وكتابه «**كتاب التحريش**»[40].

لماذا يرتدُّ مستشرق كيوسف فان إس إلى الماضي في اللحظة التي يعلن فيها انفتاحه على المستقبل؟ كيف يمكننا أن نفهم هذه المفارقة التي تتهاوى فيها الحدود بين الأزمنة إلى درجة الامحاء والتداخل؟ ولماذا يصبح العمل العلمي -في سياق الدراسات الاستشراقية المتعلِّقة بالإسلام- أشبه بالدوران الدائم في حلقة مُفرغة؟

إن مقامًا كهذا الذي نحن فيه لا يسمح لنا بتقديم إجاباتٍ وافيةٍ عن مثل هذه الأسئلة التي طرحناها، فحسبنا أن نشير هنا إلى ما يمكن أن نعتبره عناصرَ أوَّليَّةً للإجابة، وملخصها أن الاستشراق الألماني -وإن تعاقبت أجياله، وتوالت عبر العقود أعماله- يظلُّ محكومًا بتقاليده المخصوصة المنصرفة إلى الماضي، هذه التقاليد التي تمثِّل دون أدنى شكٍّ إرثًا يبدو من العسير تجاوزه وتخطيه. فلدى المستشرقين الألمان المُحدَثين والمعاصرين حرص دائم على الاستفادة من الجهود التي أرساها الآباء الأوائل، إلى درجة نجيز فيها لأنفسنا الحديث عن «إبستيمية» فريدة تحكم هذا الاستشراق وتطبعه. والطريف في هذه الإبستيمية -حسب تقديرنا- أنها توحي للوهلة الأولى بالانغلاق والماضوية، ولكنها في الحقيقة إبستيمية منفتحة.

ويكفينا في هذه المقام أن نستذكر عنوان مقالة من مقالات يوسف فان إس سبقت الإشارة إليها، ونعني بذلك المقالة التي بعنوان: «**الأنشطة الموسوعية في العالم الإسلامي: بعض أسئلة ولا جواب**»[41].

---

(39) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص2449-2460.

(40) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص2461-2500، 2501-2533، 2534-2601.

(41) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص2094-2108.

فالناظر في هذه المقالة -عنوانًا ومتنًا- يفهم أن الروح العلمية التي تحرك الاستشراق الألماني ليست روح مَن يسعى إلى إجاباتٍ نهائيَّة قاطعة، ولا حتى روح مَن يحاول البحث عن أجوبة ظرفيَّة ممكنة؛ بل هي **روح يسكنها السؤال في ذاته، مطلق السؤال**.

وإذا أخذنا هذا الأمر بعينِ الاعتبار أمكننا أن نفهم «سِرَّ» هذا الإصرار على دراسة الماضي، ماضي الحضارات الشرقية بالعودة الدائمة إلى الإرث الاستشراقي الألماني، إرث الآباء المؤسسين. ففي هذه وذاك إعلاءٌ لمنزلة السؤال وطرح مستأنف له، وليست الغاية منهما الاستئناس بإجابة قديمة أو الوقوف على حلٍّ جاهز. وهذا ما لمسناه في «**كتابات يوسف فان إس القصيرة**» وفي قسمها الأخير خاصَّة. فمن خلال العودة إلى شخصية ضرار بن عمرو وإلى كتابه «**كتاب التحريش**»، يُستأنف السؤال وترتسم ملامح مستقبل قد يبدو للوهلة الأولى مجرَّد عود على بدء، ولكنه في الجوهر تعميقٌ للنظر وإثراءٌ لمدونة البحث وتزكيةٌ لها.

وصفوة القول -في أعقاب هذه القراءة المُطولة لـ «**كتابات يوسف فان إس القصيرة**»- أن هذا الأثر الضخم الواقع في ثلاثة مجلدات والممتد على أكثر من سبعمائة وألفي صفحة، يمثل مرجعًا مهمًّا للباحثين المتخصِّصين في الدراسات الإسلامية والراغبين في الاطلاع على بعض من ثمرات الاستشراق الألماني المعاصر.

ومن أبرز مظاهر أهميته تضمُّنه قائمة ببليوغرافية جامعة موثقة توثيقًا دقيقًا على نحوٍ يتيح للدارسين الإلمام بمختلف الأعمال التي نشرها يوسف فان إس، طويلها والقصير، ويعفيهم من مؤونة البحث عنها والتماسها في مظانها المتفرقة التي يعود بعضها إلى سنوات الخمسين من القرن الماضي. ولا تقتصر القيمة التوثيقية للعمل على هذا الجانب وحده، فقد تضمَّن -بالإضافة إلى الببليوغرافيا- فهرسَيْن: فهرس الأعلام القدامى[42]، وفهرس المصادر القديمة[43]. وهما فهرسان ييسّران الوصول إلى المعلومات الواردة في المجلدات الثلاثة ويسمحان بالاستفادة منها.

ومن المظاهر الأخرى التي تدلُّ على ثراء هذا العمل وقيمته (وهي مظاهر قد تبدو شكليَّة غير ذات أهمية، ولكنها وثيقة الصلة بالمضامين مُعبرة عنها) أن المقالات الواردة فيه قد كُتبت بثلاث لغاتٍ مختلفة: الألمانية والإنجليزية والفرنسية، فضلًا عن تضمُّنها فقرات عديدة باللسان العربي متى تعلَّق الأمر بتحقيق بعض النصوص أو تدقيق القول في بعضها الآخر. ولا ريب في أن مثل هذا التنوُّع اللساني يتيح للقرَّاء العرب -مشرقًا ومغربًا- الاستفادة من العمل والإقبال عليه، كل حسب اللغة الثانية السائدة في قُطره أو تلك التي هو متمكِّن منها. على أن مظاهر الثراء والقيمة لا تقف عند هذا المستوى اللساني وحده، بل إن لها تجليًا آخر لا بدَّ من التنبيه إليه والتوقُّف عنده، وهو ما لاحظناه من تنوُّع في أنماط

(42) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص2603-2618.

(43) «الكتابات القصيرة»، مج3/ص2619-2634.

المقالات وصيغ تحريرها. فقد اتسم بعضها بطابعٍ تأليفيٍّ جامعٍ مانع، ويتعلَّق الأمر هنا بالمقالات التي وضعها يوسف فان إس مداخلَ ضمن الموسوعات المتخصِّصة، أما بعضها الآخر فقد غلبت عليه نوازع التحليل والتعليل، ومال فيه صاحبه إلى شيء من الإفاضة والتفصيل، كالمقالات التي تتناول مسائلَ كلاميَّة دقيقة، في حين انفردت مقالات أخرى بسمة تأريخية، فكانت أقرب إلى الشهادة التي تتيح للدارسين الإلمام بالتحولات التي طرأت على الاستشراق الألماني خلال النصف الثاني من القرن العشرين ومطلع القرن الحالي. وإن في هذا كله ما يجعل من «**كتابات يوسف فان إس القصيرة**» عملًا مرجعيًّا يكمل ما عرفناه من كتبه المفردة المطولة، ويشكِّل امتدادًا لحقلٍ يبدو لنا لفرط اتساعه حقلًا بكرًا لا بالنسبة إلى الدارسين والمهتمين بالفكر الإسلامي والفكر الاستشراقي والاستشراق الألماني على وجه الخصوص، بل هو بكر دون شكٍّ بالنسبة إلى المترجمين الذين تقدِّم لهم مادة الكتاب مقالاتٍ في حاجة إلى أن تُعرَّب وأن يطلع عليها جمهور لغة الضاد.

جميع الحقوق محفوظة © 2021

All rights reserved © 2021